

## مجالات البحث الديني

### د. أحد قراملكي

**الكلمات المفتاحية:** أحد قراملكي، مجالات البحث الديني، القراءة التقليدية، القراءة الجديدة.

إنّ الباحث في نطاق علمي خاص، بمثابة من يعوم في بحيرة أو مسبح. فكما أن العوم في الماء سيكون محفوظاً بالمخاطر حين لا تتوفر لدى المرء معلومات حول مساحته وعمقه ودرجة حرارة الماء وما إلى ذلك، فإن ممارسة البحث لن تيسر دون الإحاطة بالمجال البحثي. تتطلب الحكمة أن يحيط الباحث بالنطاق العلمي المحدد قبل أن يبدأ ببحثه في ذلك المجال.

وعلى أساس ذلك نجد العلماء المسلمين يهتمون بتكوين تصور إجمالي حول العلم قبل الخوض فيه، لا على سبيل البحث وحسب بل في البرنامج التعليمي أيضاً. ولهذا نجدهم قد تحدثوا عن موضوع الرؤوس الثمانية، وكانت هذه الموضوعات الثمانية في واقع الأمر جانباً من علم مناهج البحث في الثقافة الإسلامية. وفضلاً عما تقدم فإن البحث يمثل حقبة من تاريخ العلم، كما أنّ تطور العلم منوط بالأبحاث السائدة فيه. إن أي مشروع بحثي منهجي في نطاق علمي ما، يمثل في حقيقة الأمر انتقالاً من الوضع القائم إلى الوضع المثالي، أو تحولاً من النقص إلى الكمال مقارنة بالمسار التاريخي للعلم. وهذا ما لن يتحقق إلا من خلال وعي الباحث بتطورات العلم والنطاق الذي يتعلق به ببحثه. إن إدراك الفارق بين مستويات التطور المنوّه إليها يتوقف على الإحاطة بهوية العلم.

لكل علم مستويان؛ مستوى التعريف والمفهوم، ومستوى الواقع والمنجز والمتحقق. ونريد بالأول هوية العلم بالنحو الذي ينبغي أن تكون عليه، فالفلسفة التي شاعت لدى الفلاسفة المسلمين مثلاً، هي في مستوى المفهوم والتعريف، مجموعة من المسائل المبرهنة التي تتناول الموجود من زاويته الوجودية.

ويتسم العلم في مستوى مفهومه وتعريفه، بثلاث خصائص أساسية وهي كونه كاملاً ومحضاً نقيّاً وواقعياً. غير أن العلم في مستوى تحققه وواقعه يتمثل بالتراث العلمي والمصنفات والآراء والأنشطة التعليمية والبحثية، مما هو شائع

في محافل العلم. إنَّ للعلم هوية تاريخية عامة، ويزخر تاريخ العلم بالنصر والهزيمة، والنقص وعدم الفرز. إن هذا المستوى من العلم هو حركته الموضوعية التي تصاب بالشلل والعجز تارة، وتتميز بالحيوية والفاعلية تارة أخرى. يتعين على الباحث في الدراسات الدينية، أن يدرك الفجوة أو المسافة الفاصلة بين راهن العلوم ذات الصلة بمجال اهتمامه، وما ينبغي أن تكون عليه هذه العلوم، وذلك من خلال الإحاطة بالجانب القيمي للأبحاث في هذا المجال المعرفي، والتعرف بنحو دقيق على الراهن القائم للدراسات الدينية في عصره. ثمّة أهمية مزدوجة لذلك في الدراسات الدينية، فهو يجنب الباحث أوهاماً ربما تساوره حول تكامل البحث ومستواه، كما أنه يحدد بدقة وجهة الدراسات الدينية من خلال رسمه لأولويات البحث وما يتطلبه.

تشيع في أوساطنا تصورات موهومة حول المساهمات العلمية تجعلها بسهولة في مصاف الأبحاث، كما يسود طابع الاجترار والتكرار وطرح القضايا الترفية على نحو عتيق رث، وهو أمر كثيراً ما ينشأ عن عدم إدراك الحاجات الحقيقية في البحث العلمي وما يعاني من نواقص. لن يكون في وسع الباحث أن يساهم في تطوير مسار الأبحاث حين لا يكون قد استوعب تلك الثغرات أساساً<sup>1</sup>.

إن أهمية الوعي بالحقل العلمي تدفع الباحث في القضايا الدينية إلى تقديم إجابات حيال ما يلي من الأسئلة، للتخلص من المعوقات التي تحول دون نجاح بحثه:

- 1- ما هي هوية الأبحاث الدينية وما هو تعريف هذا اللون من الدراسات؟
- 2- ما هو المقياس في كون العلم دينياً؟ ما هو السر في أن الحديث عن فقه إسلامي يبدو مبرراً، بينما ليس من المبرر جداً أن نتحدث عن علم مثلثات إسلامي؟ ألا يبدو وصف الفلسفة المتداولة بين العلماء المسلمين بأنها فلسفة إسلامية، لوناً من الجاز والتساهل في الوصف؟
- 3- ما هي الفروع المعرفية الرئيسة التي تشتمل عليها الدراسات الدينية؟ ما هي النطاقات العلمية التي يستوعبها البحث الديني؟
- 4- ما هو المرجو من الأبحاث الدينية؟ على أي نحو ينبغي أن تكون العلوم ذات الصلة بهذه الأبحاث ومجالاتها؟ وما هي الحالة المثلى المتكاملة للبحث الديني؟ ما هي أهدافه وقيمه؟
- 5- ما هو راهن الأبحاث الدينية في بلادنا اليوم؟ وهل تتمتع شتى مجالات البحث الديني بالحيوية ويزدهر فيها العطاء؟
- 6- ما هي المسافة بين راهن هذه الدراسات (*present state*)، وما ينبغي أن تكون عليه (*desired state*)؟
- 7- كيف لنا أن نفسر تكوّن الوضع الراهن أو ظهور تلك المسافة بين الحالتين المنوه إليهما، ومن خلال أي عوامل ومؤثرات يا ترى؟

<sup>1</sup> - يكثر المؤلف في العديد من الموارد، من الاستشهاد بالنصوص الشرعية، غير أننا اقتصرنا في التعريب على الحالات التي وجدناها ضرورية، نظراً للإشكالية القائمة أساساً في ترجمة الشعر. وفي الفقرة أعلاه مثلاً أهملنا تعريب بيت شعري استدركه المؤلف. (المترجم).

8- ما هو الدور الذي لعبه الباحثون في المجال الديني، في تأسيس الحالة الراهنة، وما هي طبيعة المسؤولية الملقاة على عاتقهم في تقليص الهوة بين ما هو قائم وما ينبغي أن يكون في مجال الأبحاث؟

9- وفيما يتصل بالهوة تلك أيضاً، فما هو دور المناهج المتداولة في الدراسات الدينية، في تقليصها؟ هل يلعب منهج البحث دوراً إستراتيجياً في تطور الأبحاث الدينية وتقدمها؟

تنطوي كل الأسئلة المذكورة على أهمية فائقة لا يمكن تجاهلها، غير أن تناولها على نحو تفصيلي يبرر أهميتها، بحاجة إلى فرصة أفضل من العجالة هذه. كنا في مناسبة سابقة قد تحدثنا عن النقاط التسعة الهامة هذه، وتطرقنا في كتاب (مواقف العلم والدين حيال خلق الإنسان) عبر أسلوب دراسة الحالات والقضايا (case study)، إلى راهن الأبحاث في علم الكلام الجديد، وهو من المجالات المهمة في البحث الديني المعاصر<sup>1</sup>.

واخترت في الدراسة تلك موضوع التعارض الشكلي بين النظرية التحولية<sup>2</sup> (الدارونية) والتصور القرآني حول موضوع الخلق. وهذا موضوع يمثل أهم مستويات جدل العلم والدين وأبرزها، كما أن جدل العلم والدين من أهم الموضوعات في قضايا الكلام الجديد وأكثرها تأثيراً.

ويتولى كتاب **مواقف العلم والدين حيال خلق الإنسان** تسليط الضوء على راهن الأبحاث الكلامية الجديدة حتى عام 1373 [1994] على أساس أكثر موضوعاته شيوعاً. ثمة بحث آخر يمكن التنويه إليه وهو يتصل بالأفكار الكلامية الحديثة، حيث يقوم بدراسة أبحاث الكلام الجديد وظروفها منذ الحركة الدستورية (المشروطة) حتى الثورة الإسلامية في إيران<sup>3</sup>.

كما عمدنا في **دروس الأخلاق المهنية** إلى تحليل راهن علم الأخلاق الإسلامي في مستوى الأخلاق المهنية، وهي من أكثر المجالات حاجة إلى البحث في نطاق الدراسات الدينية.

وفي ضوء ما تقدم نكتفي هنا بطرح الأسئلة الثلاثة الأولى مقدمة لمنهج البحث في الدراسات الدينية. وقبل الخوض في ذلك نعود إلى ما صنعناه في الفصل الأول بغية إشراك الطالب في موضوعات الكتاب، فأدعو القارئ إلى تدوين تصوره حول الموضوع والإجابة على الأسئلة التالية، كي يقارنها فيما بعد بالموضوعات القادمة، ويصار بعد ذلك إلى نقد كلتا الإجابتين وتحليل كل منهما مقارنة بالآخر. سيدون القارئ من خلال ملء القسائم في الجداول (1-2) و(2-2) و(3-2)، تصوره حول الأبحاث الدينية والمقياس في كون العلم دينياً وتعداد الفروع الرئيسية للأبحاث الدينية وآفاقها المتنوعة، ثم ترتيبها على نحو محدد.

1 - لاحظ: فراملكي، أحد فرامرز، موضع علم ودين در خلقت إنسان (مواقف العلم والدين حيال خلق الإنسان) (تهران، آريه 1337).

2 - التحولية: transformism وصف لمذهب تشارلز دارون في موضوع خلق الإنسان. (المترجم).

3 - محمد مشهدي نوش آبادي. كلام جديد در ايران از دوره مشروطه تا انقلاب إسلامي (علم الكلام الجديد في ايران منذ المشروطة حتى الثورة الإسلامية)، قيد النشر.

ماهية البحث الديني :

.....

.....

.....

.....

الشكل 2-1: ماهية البحث الديني في تصورك

فروع الابحاث الدينية	
.....	1
.....	2
.....	3
.....	4
.....	5
.....	6
.....	7
.....	8

الشكل 2-2: فروع الأبحاث الدينية كما تتصورها.

ترتيب فروع الأبحاث الدينية :

.....

.....

.....

.....

الشكل 2-3: تصورك حول ترتيب فروع الأبحاث الدينية

## ماهية الأبحاث الدينية

تعني عبارة البحث الديني وفق دلالتها اللغوية، تلك الدراسات ذات الصلة بالدين. ونطلق وصف الأبحاث الدينية بنحو عام على تلك الدراسات التي تُعنى بالأديان، والتعاليم الدينية، والأبحاث التي تتناول السلوك والطقوس والظواهر الدينية. ونريد بالبحث الديني هنا مفهومه الأعم وهو ما يشمل فئتين من الدراسات الدينية على ما سيأتي مفصلاً، إحداهما تلك العلوم الدينية ذات الطابع الأداتي الآلي، وتمثل الأخرى بالدراسات الدينية التي لا تحمل طابعاً كهذا.

### الدراسات الدينية: مجالات متنوعة

يمكن القول بأن الدراسات الدينية تشمل سبع مجالات رئيسة (الجدول 2-4). بينما تظل شتى المجالات المعرفية الأخرى ذات الصلة بالدين، نطاقات فرعية أو علومًا أداتية آلية مقارنة بالمجالات الرئيسية تلك. إن علوم الكلام والفقه والأخلاق تمتد على حقبة طويلة في تاريخ الدراسات التقليدية ذات الصلة بالدين (الإسلام)، فيما نجد أن فلسفة الدين وعلم نفس الدين وعلم اجتماع الدين وتاريخ الأديان، تمثل حصيلة الحداثة، وقد جرى تدوينها بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أما ما يوصف بأنه علم كلام جديد أو لاهوت معاصر، فهو علم الكلام أو اللاهوت ذاته، رغم أنهما يتباينان في الهيكلية والنظام المعرفي.

إن علومًا مثل التفسير والحديث ونحوهما هي في حقيقة الأمر أدوات للعلوم المذكورة أعلاه. ورغم أن الفلسفة الإسلامية ونحوها من حقول المعرفة، تستلهم تعاليم الدين بنحو أو آخر، غير أنها لا تعد من الأبحاث الدينية بالمفهوم الذي نتصور حول ذلك.

فروع البحث الديني	
1	علم الكلام .
2	الفقه.
3	الأخلاق.
4	علم نفس الدين .
5	علم اجتماع الدين .
6	فلسفة الدين .
7	تاريخ الأديان .

الشكل 2-4: فروع البحث الديني.

## ترتيب مجالات البحث الديني

على الرغم من التمايز منطقيًا وعلى المستوى المعرفي بين المجالات السبعة في الدراسات الدينية، بيد أن ثمة آصرة معقدة تربط بينها. ويبلغ تعقيد هذه الآصرة درجة لا يتيسر معها استيعاب ذلك الترابط إلا من خلال ملاحظة الأبحاث الدينية منهجيًا. ويتطلب بيان مستويات الاختلاف بين المجالات المذكورة وتحديد مستويات ترابطها، أن نكتشف الأساس الذي قام عليه تقسيم الدراسات إلى تلك الفروع.

تنقسم الدراسات الدينية كما تقدم، إلى علوم تقليدية وأخرى حديثة. ورغم أن هذا التقسيم يبدو قائمًا على أساس زمني، حيث أن الأبحاث التقليدية تختلف عن الأبحاث العصرية في كون الأخيرة قد تكونت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بيد أن هذا التصنيف يقوم على أساس آخر أكثر أهمية يمكن في ضوءه مقارنة التباين بين نموذجين من مجالات البحث الديني. ان تباين فروع البحث الديني يقوم على تفاوت بين رؤيتين للدين وتعاليمه.

ويتجرد كل من اصطلاحى التقليدي والحديث من أي لون من القيمية أو المعيارية ذات الصلة بإصدار حكم معين، ويستخدم هذان التعبيران على نحو تنويهي إشاري - لا على نحو وصفي - كعنوان يشير إلى ما كان متداولًا في الثقافة الدينية والإسلامية وما ظهر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولا يعني التقليدي أو التراثي أمرًا عتيقًا استنفد جدواه، كما لا يدل تعبير الحديث أو الجديد على قيمة تمنح الشيء أهميته وجدواه. إن الرؤية التقليدية للدين تعني التصور السائد لدى علماء السلف حول الدين كما تجلّى في الثقافة الإسلامية منذ صدر الإسلام حتى اليوم، وما شاع بوصفه فهمًا واحدًا للدين. أما التصور الحديث فهو الرؤية التي أخذت تتكون وتشيع تدريجيًا منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر.

يمكن طرح قضايا عديدة فيما يتصل بالتقليدي والحديث من هذه التصورات، ففي وسعنا أن نتساءل حول مدى حقانية كل منهما ومدى تطابقه مع هوية الدين وحقيقته. أيهما أكثر وفاءً لتعاليم الدين وهدف الرسالة؟ أي التصورين سيحظى بدعم آيات الكتاب ونصوص السنة ومعطيات البحث "الجواني"<sup>1</sup>؟ هل من الممكن التوفيق بين التصورين المذكورين أم أنهما متقاطعان لا سبيل إلى الجمع بينهما؟

<sup>1</sup> - أقتبس هنا تعبير (الجواني) أو (interne) من المذهب الذي بشر به د. عثمان أمين، رغم الفارق بين المقصودين. إذ نريد به هنا ما يعرف بالفارسية بـ (درون ديني) أي (داخلي) وما يقع داخل مرجعية النصوص الدينية، وهو تعبير يصف المعالجات التي تعتمد على معطيات الدين المباشرة ونصوصه بمعزل عن المناهج المعرفية، وما يمكن وصفه بالمعالجات اللاهوتية لو ساع التعبير، تأسيسًا على التقابل بين المعرفي واللاهوتي. أما عثمان أمين وكما هو معروف فيريد بالجواني اعتبار قوة الروح المعبر الأساسي عن القوة الحقيقية، وأن سيادة الإنسان لن تتحقق سوى من خلال سيطرته على نفسه وتعاليمه على البواعث المادية. يمكن تبرير هذا اللون من المحاكاة رغم وجود خيارات أخرى في الترجمة، بشيوع هذا المصطلح وهو ما يجعل الكلمة الجديدة تنفادي ما يمكن ان يواجهه أي وافد شاذ حديث إلى اللغة. ان الفوضى التي يعانها تعريف النصوص الفارسية، والمستوى الرديء للترجمات السائدة وافتقارها لأبسط مواصفات الجهد العلمي، هي أمور تزيد من صعوبة نحت معادلات مناسبة، لا سيما حين تكون الكلمة أو المصطلح مترجمًا هو الآخر عن بعض اللغات اللاتينية ومأخوذة عن أدبيات اللاهوت المعاصر وجدل الدين والعلم، خاصة وأن الجهود الإيرانية في هذا المجال تتعامل مع اتجاهات في الفكر الحديث غير تلك التي يتعامل معها الفكر العربي المعاصر ويتوفر على ترجمة متواصلة لمصطلحاتها، وهو ما تحدثنا عنه في مقدمة

لسنا هنا في صدد التطرق إلى الأسئلة المذكورة أو ما يتصل بها من إجابات، غير أن ما يمثل موضوعًا للتأمل هو ظهور هذين النمطين من المعرفة ذات الصلة بالدين، على أساس التصورين المنوه إليهما.

## القراءة التقليدية للدين

ليست هوية الدين طبقًا للقراءة التقليدية، سوى رسالة الله إلى الإنسان ورد فعل الإنسان حيالها واستجابته لها. ويكتسب الوحي في هذه القراءة هوية تواصلية أولاً، وهو في حقيقته ثانيًا رسالة السماء التي يجري إبلاغها إلى الناس عبر أنبياء الله المصطفين. وتعني الهوية التواصلية أن الوحي آية وعلامة ومظهر أو تجلٍّ، في قبال الوجود أو التحقق المستقل. كما يعني كونه رسالة، أنه كلام الله واتصاله من خلال الكلام، بالإنسان. إن الله في الإسلام متكلم أو مكلم حسب تعبير الشيخ المفيد الأكثر دقة، وهو قد خاطب بني البشر في ضوء مبدأ اللطف الإلهي<sup>1</sup>. ثمة معطيات منطقية ولوازم معرفية عديدة تتفرع على القول بأن حقيقة تعاليم الدين هي كونها رسالة وخبرًا من السماء. أول هذه المعطيات أن القضايا الدينية ستكتسب طابعًا حكائيًا خبريًا، فأيات القرآن تعاليم تعكس أمرًا مستقلًا عنها وتعبّر عنه، وهذا ما يمثل السر في إطلاق إسم "الآية" على النص القرآني. يزعم كل خبر أنه يحكي الواقع -خلافًا للإنشاء- وهو يتضمن دلالة على صدق حكايته، بمعنى أنه يزعم الصدق ويدعي تطابق الحكاية مع الواقع<sup>2</sup>.

والخصوصية الأخرى لذلك هي أن من الممكن تصديق الخبر أو تكذيبه، على عكس الإنشاء، وعلى حد تعبير ابن سينا فإن الخبر هو ما يمكن وصف قائله بالصدق أو الكذب<sup>3</sup>. وفي ضوء هذه الخصوصية المنطقية ظهرت المواجهة التاريخية بين الوحي ومخاطبيه على أشكال مختلفة تراوحت بين التصديق والتكذيب والحيرة أو الشك.

وفي ضوء التصور التقليدي لهوية الوحي، فإن الإيمان بوصفه موقفًا إيجابيًا من قبل متلقي الوحي، سيفسر بأنه تصديق يقيني، بالمفهوم الشائع في علم المنطق "النظرية التي تقرر أن الإيمان هو التصديق بقضية محددة".

---

المترجم. وعلى أي حال فقد فضلت استخدام مصطلح الجواني والبراني على نحت مصطلح (الداخلي) مقابل (الخارجي) مثلًا، وهما مستخدمان في النص العربي الحديث للدلالة على ما هو أعم من مذهب عثمان أمين وما يتصل بالمعنى اللغوي العام لهما. (المترجم).

<sup>1</sup> - راجع: ايزوتسو توشي هيكو، خدا وانسان در قرآن/الله والإنسان في القرآن، ترجمة أحمد آرام (تهران: دفتر نشر فرهنگ اسلامي، 1368)، الصفحات 192 إلى 248.

<sup>2</sup> - جلال الدين الدواني، "نهاية الكلام"، تصحيح وتقديم أحد فرامرز قراملكي. مجلة نامه مفيد، شماره 5، 1357، الصفحة 122.

<sup>3</sup> - ابن سينا، الاشارات والتنبهات، تصحيح محمود الشهابي (طهران، انتشارات دانشگاه تهران، 1339)، الصفحة 15.

ومن السمات الهامة للتصور التقليدي، أن الوحي وتعاليم الدين بوصفهما رسالة وخبراً، يعترفان للمتلقى بحقه في طرح تساؤلين. ذلك أننا حين نخطب أحدهم بخبر أو رسالة، فإننا نمنحه الحق في طرح تساؤلين، على نحو لا يتيح لنا عقلاً، الظن بأن تساؤله ينطوي على لون من الوقاحة. السؤال الأول: ماذا تقول؟ والآخر: لماذا تقول ذلك؟

إن طرح كلا السؤالين يمثل أمراً عادياً مشروعاً في ضوء التصور التقليدي للوحي، لأن الوحي خاطب الناس وطالبهم بتقديم الإجابة. وتتوقف الإجابة هذه بناءً على كون الوحي خبراً، على فهم الرسالة في مستوى مضمونها، ونقدها على مستوى أدلتها. وتظل الإجابة منوطة بفهم الوحي على نحو معقول، وهذا مصداق لنموذج تعامل الإنسان مع أي لون من الإخبار، حيث يتساءل بالدرجة الأولى عن حقيقة الزعم وصدق الإدعاء. حين نسأل من يوجه نحونا خطابه أو يطرح علينا رسالته: ماذا تقول؟ فإن سؤالاً كهذا غالباً ما يتصل بمحور محدد. والتساؤل هذا إنما يستفهم في حقيقة الأمر عن موقف المتكلم حيال الأمر الكذائي. ويناط تحديد محور الاستفهام بالفتائل نفسه وصاحب الرسالة وطبيعة العلاقة بين المتكلم والمتلقي ومعرفة الأخير بالمتكلم ذاته وسوى ذلك. وعلى هذا الأساس فإن التساؤلين المهمين حيال الوحي، يطرحان في ثلاثة مجالات مهمة: واجبات الجوارح، وطباع الجوانح وخلقها، والأفكار النظرية التي تشير إلى الواقع.

ثمة اختلاف في وجهات النظر فيما يتصل بهذه النطاقات الثلاثة وكونها محوراً للتساؤلين المذكورين، إذ تقرر الفكرة السائدة ان للوحي ثلاثة أنماط من الإخبارات أو الرسائل، وبالتالي فإن القضايا والمقولات الدينية تتوزع في الوحي والسنة، على ثلاثة أقسام. إن بعض الآيات والروايات تلاحظ الواقع، بينما يتولى بعضها الآخر توصية الإنسان بواجباته، ويتضمن نوع ثالث منها، بياناً لقيم الأخلاق. وعلى هذا الأساس نجدهم يقسمون النصوص القرآنية إلى آيات الأحكام، وآيات العقائد، وآيات الأخلاق والمناسك.

وهناك تصور آخر لا يخلو من الدقة، يفسر تنوع النطاقات المذكورة على أساس تنوع ما ينتظره المرء من الدين، وهكذا فإن طرح التساؤلات المتقدمة في مستوى الواجبات والأخلاق والمعتقدات، يقوم على أساس ثلاثة أمور يتوقع المرء من الدين أن يتولى الوفاء بها، أي أن من يتلقون الوحي ينتظرون منه أن يتحدث إليهم حول النطاقات الثلاثة تلك. ومن الممكن أن تتضمن آية واحدة خطاباً للإنسان يتصل بالنطاقات تلك أجمع، أي أنه سيتضمن حديثاً عن قيم الأخلاق والتعاليم التي تشير إلى الواقع وما يتعلق بالواجبات في آنٍ واحد<sup>1</sup>.

وعلى أي حال فإن من يتلقى الوحي سيطرح ستة أسئلة رئيسة حيال ذلك، في ضوء التصور التقليدي:

- 1- ماذا يقول الوحي فيما يتصل بواجبات الإنسان البدنية حيال الله وبني البشر؟
- 2- ماذا يقول الوحي حول السعادة والفضائل والرذائل وما ينبغي وما لا ينبغي أخلاقياً؟
- 3- ما هو التصور الذي تطرحه رسالة السماء حول الكون والإنسان والطبيعة والقدر؟

<sup>1</sup> - محمد لغنهاوزن، "اقتراح"، مجلة نقد ونظر، شماره 2، بحار 1374، الصفحة 34.



- 4- لماذا يتحدث الوحي بهذه الطريقة فيما يتعلق بواجبات الجوارح (الجسد)؟
- 5- ولماذا تحدث بتلك الطريقة حول واجبات الجوارح؟ لماذا يعد الحسد من الرذائل ولا تعد الغبطة منها؟
- 6- على أي أساس يطرح الدين تصوره حول الكون؟ كيف لنا تقييم التفسير الذي قدمه الوحي للكون والإنسان والمفاضلة بينه وبين التفاسير الأخرى؟.

### القراءة التقليدية

إن متلقي الوحي لم يرتكبوا أي وقاحة من خلال طرحهم الأسئلة هذه، بل تصرفوا طبقاً للطبيعة الإنسانية التي حباهم بها الله. وبكلمة أخرى فإنه لا مفر للإنسان من طرح هذه الأسئلة في ضوء القراءة التقليدية للدين. ونجد من جهة أخرى أن تقديم إجابات مناسبة وافية حيال الأسئلة المذكورة، لا يتيسر دون الاستعانة بعدة معرفية وأدوات تناسب ذلك الغرض، وذلك لسعة دائرة التلقي زمانياً أو تاريخياً، ومكانياً أو جغرافياً، إلى جانب ما يتمتع به الخطاب الإلهي من عمق وفي ضوء تباين التوقعات والعقليات السائدة.

نجد أن شعار "حسبنا كتاب الله" يعني رفضاً للعدة المعرفية التي تتيح فهم النصوص على نحو عميق ودقيق، ولن يؤدي شعار كهذا سوى إلى الابتعاد عن خطاب الوحي وتجاهله. من المؤكد أننا بحاجة إلى وسائط وأدوات للعثور على إجابات حيال الأسئلة المطروحة على الوحي، وهي أدوات تدلل على حقيقة الآيات والروايات وحققانيتها. وهذه الأدوات تنتمي إلى مقولة العلم والمعرفة، أو أنها لون من الدراسة المنهجية والبحث المنظم بتعبير أكثر دقة. إن من يتلقى الوحي بحاجة إلى علوم الوسائل التي تجعل من نصوص الكتاب والسنة، أموراً يمكن فهمهما والتصديق بها.

وفي ضوء ذلك كان وجود القرآن والسنة بوصفهما مصدرًا معرفيًا ثريًا في الثقافة الإسلامية، سببًا في إثراء هذه الثقافة، الأمر الذي أتاح للعلماء المسلمين بناء علوم متعددة تتيح لهم استلهاهم أسئلتهم من القرآن والسنة. إن العلوم المنهجية والدراسات المنظمة ذات الصلة بتعاليم الدين والتي تتحدث حول الدين، أخذت تتطور تدريجيًا واستعانت بعدة معرفية أخرى، كما تطورت في ظل هذه الثقافة العديد من علوم الوسائل الأخرى أو تلك التي تكونت وتأسست في إطار الثقافة الإسلامية.

انكب العلماء على التفقه في الدين في تعاملهم مع القرآن والسنة، وحاولوا العثور من خلال الاجتهاد، على إجابات للأسئلة المذكورة. إن الاجتهاد المنهجي في تقديم إجابة حيال السؤال الأول (ماذا يقول الوحي فيما يتصل بواجبات الإنسان البدنية حيال الله وبني البشر؟) أدى إلى ظهور علم الفقه. والفقه من علوم الوسائط<sup>1</sup>، يوضح لمتلقي الوحي ما حدده من واجبات للجوارح. ونحن نعد الفقه علمًا إسلاميًا بالمعنى الحقيقي للكلمة على أساس طابعه الآلي الوسائطي هذا. لقد أنتج تاريخ هذا العلم بما زخر به من تحولات، العديد من علوم الوسائل

<sup>1</sup> - يريد المؤلف هنا بهذا التعبير ان هذه علوم تتوسط بين الوحي والمتلقي للكشف عن مقاصد الرسالة بأحاء مختلفة. وهو غير قولهم أنّ علم أصول الفقه أو المنطق مثلاً من علوم الوسائل. (المترجم).

كعلم الأصول والرجال والدراية وغيرها، كما تحدث الفقهاء كثيراً فيما يتصل بتحديد العلوم التي يتطلبها الاجتهاد.

إن السؤال الآخر؛ ما هي واجبات الجوانح ومناهج الأخلاق في تصور الوحي؟ حظي بمعالجات وأبحاث منهجية أدت إلى ظهور علم الأخلاق لدى العلماء المسلمين. وهو علم إسلامي حقاً على أساس طابعه الآلي الوسائطي. وليس المقصود بالأخلاق الإسلامية بوصفها علماً وسائطياً، ما يعرف عند الفلاسفة بالحكمة العملية وأخلاق أرسطو، بل يراد بها أخلاق القرآن التي أبجز الكثير من العلماء المسلمين أعمالاً متعددة حولها. ويشمل علم الأخلاق الإسلامي أسئلة من قبيل: ما هو المعيار النهائي للقيم في تصور الوحي والسنة؟ ما هو الشكل الذي في وسعنا بلورته لترتيب الفضائل والردائل في ضوء الوحي؟ إضافة إلى ما يتصل بتحديد الواجبات الأخلاقية وموضوعات مشابهاً أخرى.

أما الوساطة الأخرى التي تجيب عن سوى ذلك من الأسئلة فهي علم الكلام. حين ندرك الموقف المطلوب حيال السارق من خلال علم الفقه، ونرغب في التساؤل عن علة ذلك والعثور على مبرر مقنع له، فإن هذه الأسئلة لا تتعلق بعلم الفقه، لأن وظيفة الأخير تنحصر في تحديد ما تريده الشريعة عبر مناهج وأدلة خاصة تثبت أن الشريعة تطلب كذا ولا تطالب بكذا. ولكن لو أراد المرء أن يتساءل حول مدى ما يتوفر من مبررات للحكم الكذائي، ولا سيما في مواجهة الاتجاهات الأخرى، فإن الأمر يتطلب علماً آخر.

وهكذا نواجه أسئلة تتعلق بمبرر ما يقوله الوحي حول واجبات الجوارح والجوانح، وتصوره حول الكون والإنسان وما يستند إليه من مبررات في ذلك، وهي أسئلة تنتمي إلى علم الكلام. تولى كتابنا الهندسة المعرفية للكلام الجديد وعلى نحو تفصيلي، معالجة أسئلة من قبيل: ماذا نتظر من علم الكلام؟ وما هي المقاربات التي قدمها العلماء حول هذا العلم؟

وهكذا نكون بحاجة إلى ثلاثة علوم، في ضوء طابع الإخبار في الوحي والمستويات الثلاثة لما ينتظره الإنسان من تعاليم الوحي. وعلى هذا الأساس ظهرت وتطورت لدى المسلمين ثلاثة علوم وسائطية. أمّا سواها من العلوم التي تكاملت في نطاق الفكر الديني، فهي وسائل وأدوات للعلوم الثلاثة المذكورة، نظير علمي الحديث والتفسير، أو أن وصفها بالاسلامية لا يخلو من التسامح والجزاز، كما هو الحال مع الفلسفة الإسلامية. إنَّ الطابع الآلي الوسائطي للعلوم الثلاثة المذكورة، يعبر عن نقطتين مهمتين:

أولاً: إن هذه العلوم إسلامية حقاً، لأن المقياس في إسلامية العلوم كونها آلة ووساطة فحسب [بالمعنى المتقدم].

ثانياً: إنَّ كلاً من العلوم الثلاثة هذه يمكن أن يتطور ويتحدد في ضوء تعريفها، لأن تحولها يخضع لتجدد متلقي الوحي وتغيرهم، وهذه التبعية تنشأ عن كون العلوم المذكورة واسطة بين الوحي ومتلقيه. وربما كان هذا التحول تدريجياً بطيء الإيقاع، كما هو الأمر مع التحول الذي طال منظومة الكلام لدى نصير الدين الطوسي

مقارنة بنظيرتها عند الشيخ المفيد. وربما كان تحولاً جذرياً دفعة واحدة، كما هو حال علم الكلام المعاصر مقارنة بالكلام الكلاسيكي.

لم يحظ هذا الجانب في العلوم الثلاثة باهتمام الباحثين. ونلاحظ أنّ هاجس تجديد الفقه وتأهيله لتلبية الحاجات المعاصرة، أدى إلى طرح العديد من القضايا فيما يتصل بالبنية والمنهج والموضوعات ومبادئ الفقه كذلك. كما أدت الأفكار العقيدية المطروحة منذ الحركة الدستورية حتى اليوم إلى إثارة العديد من الموضوعات، وهي قضايا تتطلب معالجتها الاستعانة بأدوات ومناهج ومبادئ جديدة، الأمر الذي دفع المتكلمين إلى الإقبال على الموضوعات الكلامية الجديدة وأدى إلى تعزيز الشعور بالحاجة إلى تأسيس منظومة كلامية جديدة. لقد احتل الكلام الجديد مكانة جعلته بمثابة مادة في الإلهيات ومقرراتها في الحوزة العلمية، كما أنّه بات فرعاً مستقلاً أيضاً. غير أن علم الأخلاق تعرض إلى إهمال شديد من هذه الناحية، فجرى تجاهله من قبل الأوساط العلمية والباحثين في الفكر الديني. لم يتكون شعور بالحاجة إلى تجديد هذا العلم وتأهيله لتلبية الاحتياجات المعاصرة ولا سيما في مجال الأخلاق المهنية. ورغم الحاجة إلى أخلاق مهنية مجدية في مجال الصناعة والتجارة والمؤسسات الحكومية والطبية والرياضية، إلى جانب مؤسسات الإدارة والنظام القضائي، غير أننا لا نلمح حتى الآن برامج بحثية منظمة تتوفر في تلك المجالات على نحو وافٍ. لا يوجد في الجامعة اتجاه أو فرع يحمل اسم الأخلاق، كما ليست هنالك مجلة أو دورية علمية-بحثية تصدر في هذا الحقل. لو أراد مدير مؤسسة اقتصادية أن يدون ضوابط للأخلاق المهنية في ضوء تعاليم الإسلام، فإنه لن يجد بسهولة خبيراً يستشير في هذا الحقل كما يبدو. إن من أهم عوامل ركود هذا الفرع، غياب التواصل الفاعل والآصرة العميقة بين الباحثين في الدراسات الدينية ومؤسسات المجتمع.

### القراءة الجديدة

أدى الفكر السائد في عصر الحداثة إلى ظهور رؤية جديدة حيال الدين. ثمة عاملان رئيسان لعبا دوراً في تكوين تلك الرؤية هما ولادة العلوم التجريبية وتطورها المذهل إلى جانب شيوع الأفكار المدرسية. نجد أن علماء في فروع نظير السايكولوجيا والاجتماع في القرن التاسع عشر، ولا سيما رجالاً من طراز فرويد وماركس ودوركهيم الذين مثلوا في حقيقة الأمر كبار الباحثين في هذه العلوم، بادروا إلى تناول الدين وتعاليمه وظواهره بوصفها ظاهرة نفسية واجتماعية، الأمر الذي أسس اتجاهًا جديدًا في البحث الديني.

إن التصور الحديث لا يفترض الدين رسالة وخبراً، بل يفسره بوصفه حقيقة مستقلة. ورغم أنّ القراءة الجديدة لا تتقاطع مع القراءة التقليدية وأن التوفيق لا يمتنع بين هذين التصورين على المستوى المنطقي، بيد أن القراءة الثانية لطالما أصبحت بديلاً عن القراءة الأولى. لا يعد الدين في ظل القراءة الجديدة رسالة من قبل مصدر معين، ولذلك فإن موضوعات البحث الديني الجديد لا علاقة لها بصحة الرسالات الدينية أو بطلانها، اللهم إلا أن يكون ذلك في إطار واحد من التوجهات التي سنتولى الحديث عنها لاحقاً.

غالبًا ما لا تكون الدراسات الدينية الجديدة، في صدد ممارسة بحث معياري أو الحديث عن الصدق والكذب والصحة والبطلان، بل يجد الباحث في هذا الاتجاه نفسه أمام ظاهرة فريدة معقدة وينهمك في فهمها واكتشافها. ومن الأسئلة الأساسية التي تثيرها الرؤية الحديثة هذه، ما يتصل بمهية الدين وهوية الظواهر الدينية وأبعادها، وأهداف الطقوس الدينية وجوانبها وآثارها، إضافة إلى منطلقات الإيمان ومنشئه ومكانته، وتعدد الأديان وما يطرأ من تغير على الحالة الإيمانية. إنّ وصف الظواهر الدينية وتفسيرها من أهم أهداف البحث في الرؤية الجديدة للدراسات الدينية، بينما نجد في الرؤية التقليدية أن البحث الديني يستهدف فهم تعاليم الدين وتفسيرها وتبريرها والبرهنة على صدقها.

نلاحظ أنّ الدين بوصفه وحيًا أرسله الله إلى الإنسان، لا يمثل في حقيقة الأمر موضوع الدراسة في ظل الرؤية الجديدة للدين، بل موضوعها الإيمان بوصفه معتقدات وسلوكًا بشريًا يخضع للبحث والمدرسة. لا يطرح الباحثون في هذا الاتجاه أسئلة حول صدق التعاليم الدينية، بل يتوفرون على اكتشاف الظواهر الدينية. فكما أنّ من الضروري أن نفهم الإنسان ونكتشف الطبيعة فإن من الممكن أيضًا اكتشاف الدين. بدلًا عن التساؤل حول صدق القضية التي تقرر "أن الله رحيم" أو كذبها مثلًا بوصفها خبرًا سماويًا، نجد أنّ الاتجاه هذا يتساءل حول منشأ الإيمان برحمانية الله وآثار ذلك وما يتحرك عنه من منطلق. وتتحرك الأبحاث في ظل القراءة الجديدة على مستوى الواقع، بعيدًا عن مستوى التقييم والحكم، على حد تعبير يونغ (1875-1961) في تنويبه إلى ذلك<sup>1</sup>.

ويلاحظ جون هيك التحول المذكور في مسار البحث الديني ويصفه بأنه تغير في الموقع الذي احتله مصطلح (الله) بوصفه مفردة أساسية هي مدخل لمجموعة من المفردات والمصطلحات، حيث تخلت عن موقعها لصالح مفردة أخرى هي مصطلح "الدين" الذي أصبح هو المصطلح الرئيسي في تلك الفصيلة أو المجموعة اللغوية ذاتها<sup>2</sup>، وبكلمة أخرى فإن الإلهيات [علم معرفة الله] تحولت إلى علم معرفة الدين [أو علم الأديان].

إن صيرورة "الدين" بديلًا عن "الله" بوصفه المحور الأساسي للبحث والمعالجة، أدى إلى لون من التحول في طبيعة الأسئلة التي تطرح دومًا بشكل جاد في هذا النطاق. كان التساؤل التقليدي يستفهم طبعًا فيما يتصل بالله: هل ثمة وجود لله؟ أو هل يمثل الله أمرًا حقيقيًا؟ غير أنّه ليس في وسعنا طرح سؤال كهذا حيال الدين إذ من الواضح أنّ الدين موجود. تتمثل أهم الأسئلة بتلك التي تتصل بغايات الدين وأهدافه في حياة الإنسان<sup>3</sup>.

### المجالات الهامة في البحث الديني

بلورت القراءة الجديدة للدين مجالات جديدة في الأبحاث الدينية، فالدين حينئذ وبوصفه حقيقة معينة، أمر بشري أي انه ظهر في حياة الإنسان كحقيقة وظاهرة. وهذه الحقيقة التي اقترنت بظهور الإنسان وواكبته، ليست حقيقة

<sup>1</sup> - غوستاف يونغ كارل، روان شناسي ودين/الدين وعلم النفس، ترجمة فؤاد روحاني (تهران: شركت سهامی كتابهای جیبی، 1370)، الصفحة 4.

<sup>2</sup> - جون هيك، فلسفه دين، ترجمة بهرام راد (سالكي) (تهران: انتشارات بين المللي الهدى، 1372)، الصفحة 185.

<sup>3</sup> - المصدر نفسه، الصفحة 186.

ذات مستوى واحد في ضوء تعقيدها وتعدد أبعادها، بل تتمتع بمستويات متعددة. إن الدين حقيقة فردية يصفها يونغ مؤسس التحليل النفسي بأنها قضية شخصية مهمة<sup>1</sup>، وهو أيضاً ظاهرة اجتماعية تتصل عبر آصرة وثيقة بالمؤسسات والكيانات الاجتماعية الأخرى. وهو كذلك حقيقة تاريخية أخذت مسارها في حضارة الإنسان واكتسبت هوية تاريخية.

وفضلاً عن المستويات المتعددة المذكورة فإن تعقيد الحقيقة الدينية يتمثل في الحقيقة المعرفية أيضاً، والمراد بها أنّ الفكر الديني أدى تدريجياً إلى ظهور علوم دينية نظير الكلام والإلهيات. وقد حظيت هذه العلوم كما هو الحال مع سواها، باهتمام فلاسفة العلم. إن تعدد مستويات الحقيقة الدينية في الإطار الإنساني أدت إلى ظهور فروع جديدة في البحث الديني ضمن الدراسات الدينية.

والدين بوصفه حقيقة فردية في الإطار الإنساني، يمثل موضوعاً للدراسة عند علماء النفس. فهم يتناولون السلوك الديني على أساس قوانين السلوك العامة، وثمة مفاهيم وتحديدات عديدة قدمت لتعريف علم نفس الدين<sup>2</sup>، على نحو يجعل من الصعب بلورة تعريف يرضي جميع علماء النفس. لكن التنويه بالقضايا الرئيسية في هذا المجال من الأبحاث الدينية يقدم لنا تصوراً واضحاً حوله، ومن أهم تلك القضايا أساس الدين ومنشؤه ومكانة الإيمان وما يطرأ عليه من متغيرات نفسية، إلى جانب أنماط الإيمان وأشكاله والتجربة الدينية إضافة إلى الآثار النفسية للإيمان<sup>3</sup>.

بدأ علم نفس الدين للمرة الأولى مع باحثين كبار من طراز فرويد (1856-1939) وويليم جيمس (1842-1910) وفرانكل (1905) ويونغ (1875-1961) وهو حقل يشهد اليوم ازدهاراً كبيراً بفضل استخدامه المناهج والعدة التجريبية بما يمثل دراسة تجريبية للدين. وقد حظي هذا الحقل من الأبحاث الدينية باهتمام الباحثين المسلمين كذلك<sup>4</sup>.

أصبح الدين بوصفه حقيقة اجتماعية موضوعاً في بحوث علماء الاجتماع، فقد تأثر الإيمان بالعوامل الاجتماعية كما أفرز آثاراً اجتماعية، ويرتبط الدين مع مختلف مؤسسات المجتمع بوصفه واحداً من أهم الكيانات والمرتكزات القائمة فيه.

إن الموضوع الرئيسي في علم اجتماع الدين هو علاقة الدين بالمجتمع، ويتوفر الباحثون في هذا المجال على مقارنة الآثار الاجتماعية للدين في تعزيز التكافل الاجتماعي واستقرار الحياة الاجتماعية. وهذا النطاق من الأبحاث الدينية يتحرك في إطار موضوعين مهمين:

<sup>1</sup> - روان شناسي ودين، مصدر سابق، الصفحة 1.

<sup>2</sup> - Wulf. D, *psychology of Religion: chassic and contemporary*, New York, 1991, p. 18-20.

<sup>3</sup> - نيما قرباني، روان شناسي دين: يك روى آورد علمي چند تباري/علم نفس الدين: اتجاه علمي متعدد الأصول، قيسات، شماره 8 و 9، سال 1377، الصفحات 22 إلى 45.

<sup>4</sup> - بل واطسون ونيما قرباني، روان شناسي دين در جامعه مسلمان/علم نفس الدين في الاوساط الاسلامية، ترجمة بونه بناكار، قيسات، شماره 8 و 9، سال 1377، الصفحات 53 إلى 72.

الأول: الدور الهام الذي تلعبه المعتقدات والسلوك والطقوس الدينية في كل من الثقافة والمجتمع.  
والثاني: التحول والتطور الذي طال أشكال المعتقد والسلوك الديني في المجتمعات الإنسانية<sup>1</sup>.  
ظهر علم اجتماع الدين لأول مرة على يد باحثين كبار ضليعين من طراز كارل ماركس (1818-  
1883) بتوجهاته المادية الديالكتيكية، وإميل دوركهايم (1858-1917) باتجاهه الوظيفي، وماكس فيبر  
(1864-1920) بتوجهه العقلي، وهؤلاء نموذج للعلماء الذين أخذوا في دراسة الدين. لقد ابتعد هذا الحقل  
اليوم، عن التنظير شبه العلمي الذي غالبًا ما يستعصي على التكذيب، وظهر كدراسة تجريبية للدين يتسلح  
بأدوات علم الاجتماع ويتحرك في إطاره<sup>2</sup>.  
غالبًا ما يغيب التمييز بين علم نفس الدين (Psychology of Religion) وعلم النفس الديني  
(Religious Psychology) وكذلك علم اجتماع الدين (Sociology of Religion) وعلم الاجتماع الديني  
(Religious Sociology). غير أنّ الالتفات إلى التباين المعرفي بين هذه الحقول يساهم بنحو أساسي في فهم  
شتى مجالات البحث الديني.

يمتلك النطاق الثالث في الأبحاث الدينية الجديدة سابقة تاريخية أعرق مقارنة بالحقلين المذكورين، وأعني  
بذلك الدراسات التاريخية للدين. وحيث ان الدين ولد مع الإنسان وواكبه فهو من أهم العناصر المكونة لأسس  
الحضارة الإنسانية، كما يمكن رصد التجارب الدينية على اختلاف أنماطها، في شتى مظاهر الحياة الإنسانية.  
وقلما وجدنا ظاهرة تتمتع بهوية تاريخية كتلك التي يمتلكها الدين ربما. والمراد بالحقيقة التاريخية تلك التي تتحرك في  
نطاق الزمن وتنسم بتواصل تاريخي.

كانت الدراسة التاريخية للأديان تعد يومًا ما، بحثًا حول تاريخ المعتقدات والسلوك الديني، وعلى هذا  
الأساس كانت برامج البحث في الاتجاه التاريخي تنطلق من الماضي لتتحرك نحو المستقبل. أما اليوم وفي ظل الاتجاه  
الحديث العلمي في الدراسات التاريخية، فقد اكتسب تاريخ الأديان مفهومًا جديدًا. إنّ البحث الديني التاريخي  
يمثل اكتشافًا للماضي في ظل المستقبل، ويتناول الظواهر والتجارب والسلوك الديني في إطار الزمن وفي ظل تطورها  
التاريخي، ويجعل من الممكن تفسيرها وفهمها من خلال المقارنة بين أشكالها وصورها المتنوعة. لقد أدت أدوات  
البحث التاريخي الحديثة إلى جعل هذا الحقل من الأبحاث الدينية جزءًا من الدراسات التجريبية للدين. ومن أهم  
موضوعات الدراسات التاريخية للدين، وحدة تجارب الإنسان الدينية، والتطور التاريخي للإيمان، وما يلعبه الدين  
والتطور الثقافي والمتغيرات الإنسانية وأشكال الإيمان المختلفة، من دور في هذا الإطار.

<sup>1</sup> - لمزيد من التفصيل راجع: ملكم هلتون، *جامعه شناسي دين/علم اجتماع الدين*، ثلاثة مترجمين (تهران، تيبان، 1375).

<sup>2</sup> - Davis Winston, *Sociology of religion, the Encyclopedia of religion*, P. Edwards (ed.), 1987, Vol. 13 p. 393-410.

ثمة للحقيقة الدينية عند الإنسان، مظهر آخر سوى الإيمان، إذ إن الإنسان في تعامله مع الدين لم يكتف بممارسة التدين والإيمان وممارسة الطقوس الدينية، بل جعل من ذلك بمجمله موضوعًا للجهد المعرفي المنهجي. وكما أسس الإنسان منظومات معرفية كالفيزياء والرياضيات والاحياء، فإنه قام بتأسيس الفكر الديني أيضًا. ورغم ما يتسم به الفكر الديني من طابع وسائطي بين الوحي ومتلقيه، بيد أنه فكر بشري على أي حال، وكما شيد الإنسان الحضارة وابتدع الصناعة والتكنولوجيا، فإنه أسس الكثير من العلوم ثم راح ينظر إليها ويتناولها من منظور إبستمولوجي. وكما يجعل الإنسان ظواهر الطبيعة موضوعًا للمعرفة، فإنه يجعل من المعرفة الإنسانية ذاتها موضوعًا للدراسة، ومن خلال ذلك يتوصل إلى معطيات الدرجة الثانية<sup>1</sup> (second order knowledge). وتمثل فلسفة العلم بفروعها ومجالاتها المتنوعة، حصيلة أبحاث الدرجة الثانية التي يكون موضوعها العلم. ويطلق إسم فلسفة الدين على أبحاث مماثلة تدور حول الفكر الديني وتكون المعرفة الدينية موضوعها، بوصفها واحدًا من العلوم البشرية. إن فلسفة الدين هي من حقول الأبحاث الدينية، وعلى حد تعبير بازل ميشيل فإن العلاقة بين الدين وفلسفة الدين كالعلاقة بين علم التاريخ وفلسفة التاريخ أو العلم وفلسفة العلم<sup>2</sup>.

وتتولى فلسفة الدين دراسة الدين بوصفه حقيقة إنسانية كما هو الحال مع الحقول المذكورة سابقًا، غير أن موضوع فلسفة الدين لا يتمثل بالإيمان في مفهومه النفسي أو الاجتماعي أو التاريخي، بل موضوعها علم بشري هو علم الدين (نظير علم الكلام أو الإلهيات). وهكذا فإن التمييز بين فلسفة الدين وعلم الكلام والإلهيات أمر أساسي.

ليست فلسفة الدين كما يقول جون هيك، أداة لتعليم الدين أو تعلمه، بينما نجد أن علم الكلام والإلهيات يمثلان برنامجًا تعليميًا تبشيريًا يحمل طابعًا وسائطيًا. إن فلسفة الدين مستقلة عن موضوع البحث فيها [أي أنها علم لا وسائطي] على العكس من علم الكلام<sup>3</sup>.

### العلاقة بين مجالات البحث الديني

ثمة أصرة تجمع بين المجالات السبعة للبحث الديني. فالعلوم التي تتأسس على القراءة التقليدية للدين، تتحدث عن الدين في واقع الأمر فتفسر ماهية الرسالة الدينية وحقيقتها وتثبت صدق تعاليم الدين. والهدف من هذه الأبحاث مقارنة الرسالة التي حملها الدين للإنسان والمبرر للرسالة تلك. وهكذا فإنها تتسم بطابع وسائطي وهي حقول دينية

<sup>1</sup> - يشير في هذا إلى ما يعرف في الفلسفة الكلاسيكية بالعلم المضاعف أو المركب مقابل العلم البسيط. فثمة علم بسيط يمثل الإدراك المؤلف كالعلم بأن أرسطو إنسان، وهناك علم آخر يكون موضوعه العلم الأول البسيط أي أنه علم بعلمنا بأن أرسطو إنسان. إذ إنّ قضايا الدرجة الثانية هي تلك التي يكون موضوعها الإدراكات والمعارف البسيطة بحيث تكون حصيلة القضية عبارة عن العلم بالعلم، وقد يعبر عنها في المنطق الكلاسيكي بالقضايا التي تتولى تحويل العلم الارتكازي المغفول عنه إلى علم تفصيلي ملتفت إليه. (المترجم).

<sup>2</sup> - Mitchell, Basil (ed.), *the philosophy of Religion*, oxford university press, 1986, p.1.

<sup>3</sup> - هيك، مصدر سابق، الصفحة 22.

وإسلامية بالمعنى الحقيقي للكلمة. غير ان العلوم التي تتأسس على القراءة الحديثة للدين إنما تتحدث حول الدين (معنى الإيمان أو الفكر الديني).

إنّ البحث الديني الجديد يشكل منعطفًا مهمًا في الدراسات الدينية، ويتولى جون هيك وصف هذا التحول على نحو واضح بقوله: "إنّ نظرية راندال فيما يتصل بالدين والدور الذي تلعبه لغة الدين، تعكس بوضوح كامل لونًا من الفكر يشيع اليوم بأشكال أخرى وبدرجة أقل من الوضوح، في كل مكان، فيما هي السمة التي تميز ثقافتنا في حقيقة الأمر. وقد تبلور هذا اللون من التفكير إلى درجة جعلت مصطلح الدين يتقدم إلى حد كبير كبديل عن مصطلح الإله. نجد اليوم في المجالات والموضوعات التي كانت تتولى في الغالب معالجة قضايا تتصل بالله ووجوده وصفاته وغايات فعله، أنّ الموضوعات والقضايا ذاتها على سبيل المثال، تدور اليوم حول الدين وماهيته ودوره وصوره وقيمه العملية. إنّ صيرورة "الدين" بديلاً عن "الله" بوصفه المحور الأساسي للبحث والمعالجة، أدى إلى لون من التحول في طبيعة الأسئلة التي تطرح دومًا بشكل جاد في هذا النطاق"<sup>1</sup>.

هنالك تداخل بين موضوعات الحقول السبعة في الأبحاث الدينية، إذ نجد أنّ قضية واحدة هي التجربة الدينية مثلًا، تكون موضوعًا للبحث الكلامي والفلسفي والنفسي والتاريخي. ويعود ظهور حقول وعلوم متنوعة تتناول قضايا واحدة، إلى ما تتسم به الموضوعات أو القضايا ذات الصلة بالدين من طابع أو هوية متعددة الأصول (multiple-origins). وستتناول ذلك على نحو تفصيلي في بحثنا لاتجاه الدراسات البيئية<sup>2</sup>.

كان هذا التداخل في الموضوعات يؤدي تارة إلى خلط المباحث والدمج بين الحقول والمجالات، ويتمخض تارة أخرى عن نزعة حصرية. وبعبارة أكثر دقة فإن العلماء كانوا يواجهون هذا اللون من القضايا أحيانًا باعتماد الحصرية المنهجية (methodological exclusivism) فلا يحفلون إلا بمعطيات علمهم الخاص. بينما نجد أحيانًا باحثًا مبتدئًا يخلط بين معطيات علمية متنوعة ولا يعود عليه منها سوى الحيرة والضياع. لقد بلور الاتجاه البيئي اليوم آصرة مفيدة مؤثرة بين المجالات المتنوعة للأبحاث الدينية، وستقوم في الفصول القادمة بتناول المنهج البيئي ومبحث طبيعته وأهميته، في الدراسات الدينية.

تتجلى بعض مستويات العلاقة بين حقول البحث الديني المتنوعة، في أنّ كلاً منها ربما رُفد الآخر بقضية جديدة أو أسس له مبادئ جديدة. وعلى سبيل المثال فإن المتكلم الذي يعد نظرية القبض والبسط في المعرفة الدينية، لونًا من الشبهات بوصفها واحدة من معطيات فلسفة الدين، سيجد أن هذه النظرية تمثل قضية لا بد من معالجتها وتفنيدها. بينما ستكون تلك النظرية واحدة من مقدمات البحث الكلامي وأسسها، لدى متكلم آخر يرى فيها تصورًا مفيدًا<sup>3</sup>.

1 - المصدر نفسه، الصفحتان 185 و186.

2 - أوضحنا هذا المصطلح في هامش سابق. (المترجم).

3 - لمزيد من التفصيل وملاحظة أمثلة عديدة، يراجع: احد فرامرز قراملكي، كتابشاسي توصيفي تحول معرفتي ديني/جغرافيا وصفية لتطور الفكر الديني، كتاب نقد، زمستان 76-بهار 77، شماره 6 و5، الصفحات 362 إلى 384.



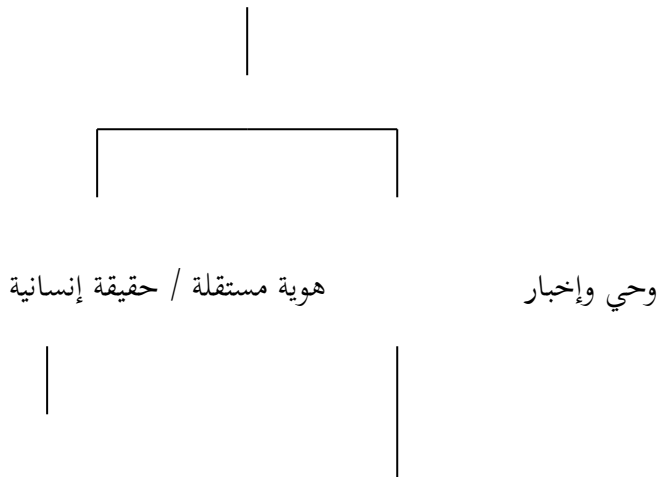
ويعبر التفاعل المعقد بين حقول البحث الديني المتنوعة، عن مدى صعوبة الأمر في الدراسات الدينية، ويوضح أنّ جدوى هذه الدراسات يتوقف على تبلور آصرة معرفية مع شتى المجالات الأخرى.

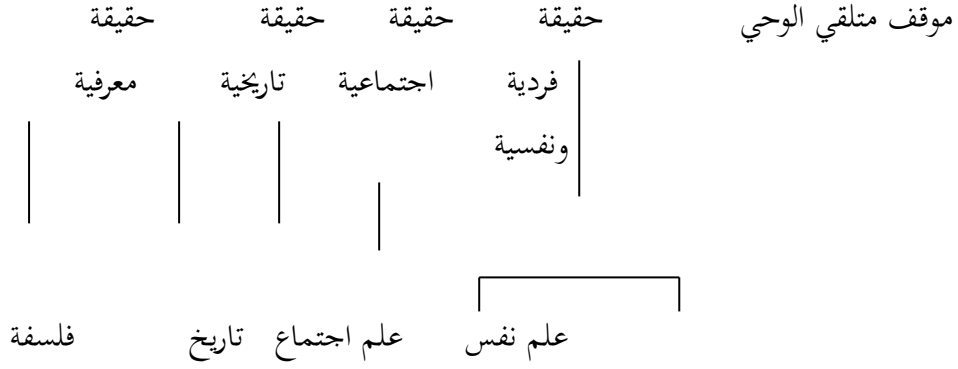
### إيجاز لما مر

إنّ الدراسات الدينية أبحاث تتصل بالدين وتعاليمه وظواهره. وفي ضوء القراءة التقليدية يؤدي اعتبار الدين رسالة وخبزاً، إلى ظهور علوم الكلام والفقه والأخلاق بوصفها علومًا وسائطية بين الوحي والعقل واللغة لدى المتلقي. وهذه علوم إسلامية حقًا، أما سواها فهي أدوات للعلوم الثلاثة تلك أو أنّ وصفها بالإسلامية لا يخلو عن التسامح والمجاز.

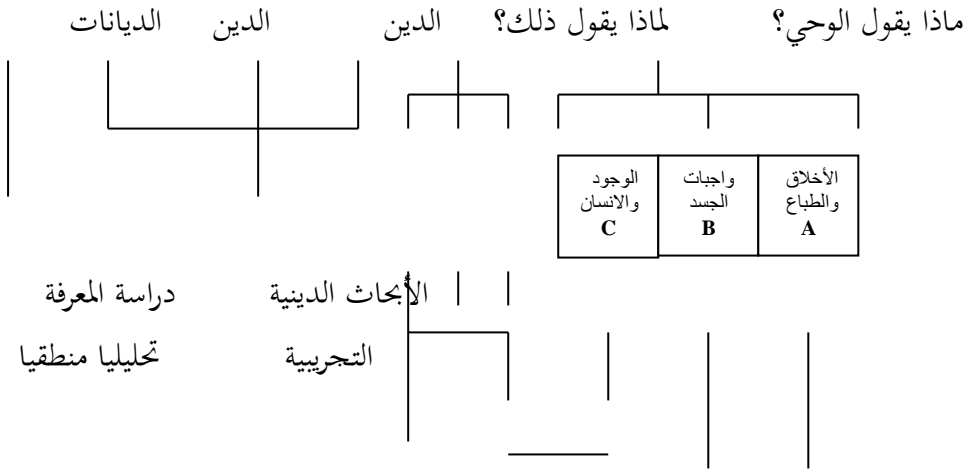
وفي ضوء القراءة الجديدة للدين، ظهر علم نفس الدين وعلم اجتماع الدين وتاريخ الأديان وفلسفة الدين. وتصنف الحقول الثلاثة الأولى على الدراسات الدينية التجريبية، التي تتولى معالجة الدين باعتباره حقيقة نفسية أو اجتماعية أو تاريخية. أمّا فلسفة الدين فهي تتولى دراسة الفكر الديني وتستعين في ذلك بالتحليل المنطقي. والمقياس في وصف علوم الكلام والفقه والأخلاق بالدينية، هو طابعها الوسائطي وكونها تتحدث عن الدين، أما فيما يتصل بسواها من العلوم فالمقياس هو كونها تتناول الدين وتمارس البحث في هذا الإطار. ثمة تداخل بين المجالات السبعة المذكورة في قضاياها وعلى مستوى التأثير العلمي المتبادل، رغم ما بينها من تباين معرفي. كما أنّ أكثر الأساليب جدوى في الدراسات الدينية في ظل استيعاب تلك العلاقة المتبادلة، هو التحلي عن الحصرية المنهجية واللجوء إلى الدراسات البيئية. يتكفل الشكل 1-2 باستعراض ترتيب المجالات السبعة، وينبغي للقارئ أن يدرس الشكل التوضيحي ويقارن ذلك بالإجابات التي قدمها حيال الأسئلة الواردة في مدخل الفصل.

### قراءتان للدين





الدين



علم الكلام

علم الفقه

علم الأخلاق

الشكل 2-1: ترتيب المجالات المتنوعة في البحث الديني.

تمرين

1- إنَّ ترتيب حقول البحث الديني المتنوعة قد تجاهل ظاهريات الدين ولم يشر إليها. قدم تفسيراً ونقداً لذلك.

2- يتضمن الفهرس أدناه العلوم التي توصف بأنها إسلامية. كيف تفسر وصفها بالإسلامية طبقًا للنطاقات البحثية المذكورة وفي ضوء المقاييس التي ذكرت من قبل؟ يقدم الجدول 2-5 إطارًا للتحليل المطلوب.

ت	العلم	إسلامي	علم وسائطي آلي	إسلامي مجازا	السبب
1					
2					
3					
4					
5					
6					

الجدول 2-5: تفسير إسلامية العلوم الموصوفة بأنها كذلك

